المقدمة

سيظل القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين يجذبان انتباه دارسى الأدب ، وذلك لسببين رئيسيين ، أولهما : أن النهضة الأدبية التى تفجرت مع مطلع هذا القرن لم تتوقف ، ولم تغير مسارها حتى الآن ، ربما تغيرت عوامل النهوض والرقى ولكنا مازلنا نعيش عهد بهذه النهضة التى تصل إلينا أصداؤها واضحة ، وتهب علينا رياحها قوية ، ومايزال بعض هؤلاء الذين فجروا هذه النهضة يتردد بين جنبات حياتنا الأدبية . وثانيهما : أن الدراسات الأدبية التى تناولت هذا القرن لم تف بعد بحقه من الدرس والتحليل .. فأمام هذه الدراسات مجالات عدة تستطيع أن تقدم ـ من خلالها ـ للمكتبة العربية إيضاحات للكثير من القيم الفكرية والنفسيه والفنية التى تمثلت فى أدب هذا القرن .

واختيارى لشعر عباس محمود العقاد موضوعا للبحث ليس وليد الصدفة .. فقد كان الرجل من معالم النهضة الأدبية ، فلا تذكر الا مقترنة باسمه ، لقد كان رأس مدرسة الديوان التى حملت رياح التجديد منذ بداية القرن العشرين ، وكان كتاب " الديوان فى الأدب والنقد " علما على الطريق تبعته أعلام أخرى ، أخذت تخفق بشدة فتهز عامود الشعر ، وتزعزع أركانه ، فالعقاد شاعر ، ومن ناحية أخرى صاحب نظرية فى الشعر . ولكن مما يثير الدهشه أن العقاد الشاعر لم يفهم تماما بقدر ما فهم العقاد الناقد ، ولم يعرف كشاعر إلا بين قلة قليلة من المتخصصين ، وهذا أمر مؤسف ومحير معا ، وهو مادفعنى إلى اختيار هذا الجانب الأدبى لدراسته

لقد ترك العقاد عشرة دواوين تحتاج إلى دراسة متأنية ـ بل دراسات ـ لإبراز مظاهر التجديد التى تمثلت فيها ، وموقف العقاد من النهضة الشعرية فى القرن التاسع عشر وموقف النقاد منه .

وقد اقتضت هذه الدراسة تقسيم البحث إلى أربعة أبواب ، تناول الباب الأول بحث عوامل ازدهار الحياة فى مصر ، سياسيا واجتماعيا وأدبيا .. وقد اتفق المؤرخون على أن الحملة الفرنسيه كانت الشراره الأولى التى أقالت الأمة من عثرتها ، فهب الشعب المصرى يدافع عن وطنه وعن كرامته ، واندلعت الثورات الوطنية فى كل مكان تندد بسياسة المحتل ، وتشيد بتقدمه العلمى .. فذكرت محاولات محمد على للنهوض بأحوال البلاد فى مختلف المجالات . وتنبهت بإيجاز نواحى التقدم التى شملت الحياة الثقافية .. تحدثت عن الصحافة وتطورها وأثرها فى بعث الشعور القومى ، وشحذ النفوس لمقاومة المستعمر ، ونهضة التعليم وما واكبه من إنشاء للكثير من المدارس والمعاهد والبعثات إلى الخارج ،

بداية للنهضة الأدبية التي قادها محمود سامي البارودي .. لقد فشلت الثورة العرابية سياسيا ، ولكنها حققت نصرا كبيرا للأدب فنشأت القوميات الثلاث : المصرية والعربية والإسلامية ، وكان لكل قومية دعاتها وشعراؤها ومؤيدوها .. ثم تحدث بعد ذلك عن أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوروبي — متمثلا في المطالبة بالحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية الحديثة ، والدعوة إلى تحرير المرأة ، وتحرير الفكر من سلطة رجال الدين — على الشعراء والنقاد الذين انقسموا إلى فريقين : محافظين ومجددين ، وتحدث بإيجاز عن المعركة بين القديم والجديد ، والأغراض الشعرية التي اندثرت ، وما استحدث من أغراض .. كما أشرت إلى مظاهر التجديد التي امتدت لتشمل القالب الشعري والمعنى ، أي الشكل والمضمون ، وأبرز من قام بهذا الدور من الشعراء الذين تأثروا بالثقافة الغربية العقاد ، وعبد الرحمن شكري ، والمازني ، ومطران ، وغيرهم . كما تناولت بالحديث أسباب الخصومة التي اشتدت بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، والأسلوب العنيف الذي لم يكن غريبا على النقد في ذلك الوقت .. فقد نضحت السياسة على الأدب ، واشتعلت المعارك بين " الأحزاب " الأدبية مثل ما احتدمت الخصومة بين الأحزاب السياسية ، وتبدلت العبارات البذيئة نفسها ، واعتصم كل فريق بجريدة أو أكثر يكيل منها الشتائم للفرق الأخرى .. وكان العقاد أشد هذه السهام وطأة على خصومه بخاصة شوقي الذي كان يعده نموذجا للتقليد الذي ثار عليه .

كما تناول هذا الباب الحديث عن العقاد الإنسان : نشأته وحياته في أسوان وأسرته والعناصر التي أثرت في تكوين شخصيته ، ومظاهر تأثره بالبيئة والعصر والعوامل الوراثية التي أسهمت في تكوينه ، وتحدثت كذلك عن ثقافته ، وقراءاته في شتى فروع المعرفة ، واطلاعه على الثقافة الأوروبية وأثر ذلك على إنتاجه الأدبي كما أشرت إلى العلاقة الحميمة التي ربطت بين العقاد ووالدته ، منتهيا إلى موقفه من المرأة بصورة عامة ، ودورها في حياته .. وختمت هذا الباب بالحديث عن أعماله المؤلفة والمترجمة مرتبة بحسب تاريخ نشرها .

وتناول الباب الثاني موضوع " الشعر في نظر العقاد " ، وقد قسمته إلى فصلين ؛ تحدثت في الفصل الأول عن نظرية الشعر عند العقاد ، ووافق هذه النظرية ، ووجدت أنه يعتمد أساسا على عنصر الشخصية ، وكان منهجه هو منهج Sainte Beuve الذي لا يفصل العمل الأدبي أو الشعري عن صاحبه ، فدراسته عن ابن الرومي لا تفصل ابن الرومي الإنسان عن ابن الرومي الشاعر ، ثم يتطور هذا المنهج في دراسته لشخصية الشاعر بالربط بينه وبين البيئة تارة ، وبينه وبين العصر تارة أخرى معتمدا في ذلك على النظرية المثلثة للناقد الكبير Taine ، وهي نظرية الجنس والبيئة والعصر ،

في عاتين الدراستين بين البواعث النفسية والعوامل البيئية في سيرة هذين الشاعرين ، وبذلك يكون العقاد قد جمع بين عناصر النظرية النقدية — كما فهمها — بحيث لا نستطيع أن نفصل عنصر الشخصية عن عنصري البيئة والعصر ، كما لا نستطيع أن نفصل هذه العناصر جميعا عن علم النفس وتحليلاته ، ثم تجيء دراسته عن أبي نواس — وهي من الدراسات الرائدة التي أخصبت الأدب بتأثير علم النفس — وبذلك تطورت نظرية الشعر عند العقاد من حيث الاهتمام بشخصية الشاعر وسط بيئته وعصره ، وفي ظل العامل النفسي الذي يفسر كثيرا من الغموض الذي يحيط — أحيانا — بالشاعر .

كما بينت رأي العقاد في بناء القصيدة ، فقد دعا وبإلحاح إلى ضرورة تحقق الوحدة العضوية واعتبار القصيدة كائنا حيا لا يجوز الاستغناء عن أي جزء من أجزائه .

كما طالب — بحذر — بالتخلص من قيود الوزن والقافية التقليديين ، أما اللغة الشعرية فهي تراوح عند العقاد " لغة النفس " وقد تحدث العقاد عن عالم النفس والشعور وصلته بالحياة ، ولذلك عرف الشعر بأنه التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وهذا التعريف يشير إلى قضية أخرى هي قضية الصدق والكذب ، وقد تتبعت مفهوم هذه القضية عند القدماء وأوجه الاتفاق بين نظرتهم ونظرة العقاد إلى المضمون الفني كما تحدثت عن قضية الطبع والتكلف كما فهمها القدماء والمحدثون ، وأشرت إلى أوجه الخلاف بين الفهم القديم والحديث للمصطلح ، فالصنعة عند القدماء كانت تعني صقل الموهبة وهي بذلك محاولة للوصول إلى الكمال الفني ولكن العقاد كان يريد بالصنعة التكلف ، وهو معيب . لذلك لم يكن مفهوم الصنعة مفهوما ثابتا بل فهمه الشعر على وجوه عدة ، أما دليل الطبع عند العقاد فهو الاستقلال . واختلاف الأساليب بين شعراء الأمة يعد دليلا على حياة الأمة وتنبه الطباع في أبنائها .

كما تناول هذا الفصل الحديث على الخيال الشعري وصلته بالوجدان ، فالخيال عند العقاد عملية داخلية تتم بمعزل عن كافة المدركات الحسية ، وهو في ذلك يتفق مع كولردج الذي فرق بين الخيال والتوهم ، فالخيال عمليه خلاقة أو كما يسميها العقاد " ملكة التشخيص " ، أما التوهم فهو على نقيض ذلك إذ يعتمد على إقامة علاقات بين الألفاظ تخضع لقانون تداعي المعاني . ولقد أوضحت اتفاق العقاد مع زميليه شكري والمازني في كثير من هذه القضايا وبخاصة الوجدان والخيال ، كما تناولت بإيجاز موضوع الجمال والبساطة في الفن ، وأجبت عن بعض التساؤلات المطروحة ، مثل الفن الجميل هو الفن السهل البسيط ؟ هل الفن البسيط هو الفن البليغ ؟ في نظر من ؟ وأوضحت رأي العقاد وموقفه من البساطة ثم تحدثت عن الموضوعات الشعرية ، والتجديد الذي أدخله العقاد على الموضوع الشعري ، وأوجه الخلاف والاتفاق بينه وبين المازني وعبد الرحمن شكري — وأنهيت هذا الفصل بخلاصة

العقاد مهدانا لهذه الدراسة ، وذلك لسببين .. الأول : أن هذا الديوان بأجزائه الأربعة تظهر فيه شخصية العقاد ، وأسلوبه أكثر مما تظهر في دواوينه الأخيرة ، فقد كان حريصا على تأكيد ذاته ، ومكانته في مطلع حياته الأدبية ، والسبب الثاني : أن الجزء يغني عن الكل في مجال التطبيق ، فخصصت الفصل الثاني لذلك ، ووضعت ديوان العقاد في الميزان وتحدثت عن ظهور شخصيته في الديوان ، وعلاقة هذا الشعر بالبيئة الأسوانية والمصرية والعربية التي تفاعل معها الشاعر ، والوحدة العضوية وتحققها عند العقاد ، ولذلك فقد أشرت بإيجاز إلى ديوانيْ (عابر سبيل) و(هدية الكروان) ، لتحقق الوحدة الموضوعية في كليهما .

كما تناول هذا الفصل شعر الوجدان عند العقاد ، وقد مثلت بقصائد عديدة للدلالة على أن الديوان لا يخلو من العاطفة بل أسفرت الدراسة الموضوعية عن أن هذا الديوان يزخر بالكثير من شعر النفس مثل قصيدته (غيرة طفلة) و (العقاب الهرم) و (ليلة الوداع) و (صديق غاش) و (الحرام والحلال) ، وغير ذلك من القصائد التي ذكرتها بالفصل الثاني من الباب الثاني .

أما الباب الثالث فقد عقدته للدراسة التحليلية والفنية لشعر العقاد ، وسرت فيه على نهج يخالف النهج الذي أتبعته بالباب الثاني ، فلم أقصر هذه الدراسة على ديوان واحد ، بل آثرت دراسة بعض ظواهر التجديد في شعر العقاد على المد الطولي ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدراسات السابقة لشعر العقاد كانت تقتصر على دراسة كل ظواهر التجديد بديوان واحد ، فهدت هذه الدراسات ناقصة لأنها لم تتتبع هذه الظواهر في كافة الدواوين ، ولما كان هذا العمل الشاق يحتاج إلى جهود كثيرة يقصر عنها جهد باحث واحد فقد آثرت دراسة مظاهر التجديد في ثلاث ظواهر فحسب ، وتتبعت هذه الظواهر في كافة الدواوين متمثلة ببعض الشعر الذي يغني عن الكل . ولذلك قسمت الباب الثالث إلى فصول ثلاثة .. تناول الفصل الأول شكل القصيدة وتجديد العقاد فيها ، واختص الثاني بالموضوعات الشعرية من غزل ووصف ومديح ورثاء وغير ذلك من الأغراض ، وأثر التجديد فيها . أما الفصل الثالث فقد درست فيه أثر ثقافته المتنوعة على شعر العقاد ، متمثلة — في الفصول الثلاثة — ببعض القصائد التي تدل على تحقق الظاهرة عند العقاد .

وفي الباب الرابع تتبعت آراء النقاد : المريدين والخصوم على السواء ، وفرقت في هذا الباب بين الآراء النقدية التي جاءت عرضا ببعض كتب النقد ، وبين الدراسات المتخصصة التي تناولت شعر العقاد بالدرس والتمحيص .. كما ذكرت رد العقاد على بعض هؤلاء النقاد ثم تتبعت هذا الباب بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصل إليها البحث والقضايا التي أثارت اهتمام النقاد في شعر العقاد ، ومواقفهم المنصفة والمتباينة ، وعلل تلك المواقف من واقع أشخاصهم وثقافاتهم واتجاهاتهم الفكرية والفنية .

ولكن المصير في اختيار المرجع الذي يعتمد عليه ..

وإن كنت قد وفقت إلى عمل شيء في هذا البحث فإن الفضل فيه يرجع إلى أستاذي الكبير الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام الذي قدم لي من نصحه وإرشاده وصبره دروسا لا تنسى فله خالص الشكر والامتنان . وإن كنت أعرف جيدا أن الطالب ـ تجاه أستاذه ـ عاجز عن التعبير مهما أوتي من قوة البيان وفصاحة اللسان . فأسأل الله أن أكون قد وفقت فيما أقدمت عليه وأعتذر عن نواحي النقص والتقصير .. فالكمال لله وحده .

زينب عبد العزيز المصري

١٩٧٨